القرماطيـــون

ظهر هذا الاسم فى المصادر العربيـة ، لأول مرة فيما نعلم ، فى أخبار ثورة الزنج التى قامت فى البصرة وهددت كيان الدولة العباسية ما يقرب من أربعـة عشر عاماً (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ / ٨٦٩ — ٨٨٣ م)(١) .

ولعل أكثر الذين اشتركوا فى هذه الثورة كانوا من الذين نزحوا من البلاد الأفريقيـة ، ولا سيما بلاد الزنج (أى السومال) ، واستخدمهم ملاك الأرض فى إزالة الطبقة الملحية — السباخ — التى تغطى الأراضى فى سهول البصرة ، وكشف التربة الصالحة للزراعة ، ونقل السباخ وجعله فى أكوام أو تلال للافادة منه فى الوقت نفسه(٢) .

كان من بين هؤلاء الإفريقيين زنج سوماليون كما قلنا ، ولعلهم كانوا أكثر عدداً لقرب بلادهم من العراق وسهولة النزوح إليـه ، وكان منهم النوبة الذين انتقلوا من سودان وادى النيل ، وكان منهم «القرماطيون» ، وهم — كما سنرى — جنس من أجناس السودان الغربى .

اشتهر من القرماطيين فى هـذه الثورة « راشد القرماطى » ولعب فيها دوراً هاماً(٣) .

---

(١) أهم ما كتب عن ثورة الزنج :

ا — تاريخ الطبرى حـ ١١ (ط الحسينية بمصر)

ب — Nöldeke, Sbetches From Eastern Hist. (Lordon 1892)

جـ — عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة (ط بغداد ١٩٤٥) ص ٧٥ — ١٠٥

د — ثورة الزنج لفيصل السامر (ط بغداد ١٩٥٤)

(٢) فيصل السامر ص ٢٣ ، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مجلد ١٠ (زنج).

(٣) تاريخ الطبرى ١١/١٧٤ .

ذكر المسعودى أن أول من صنف فى أخبار ثورة الزنج فى العراق محمد بن الحسن بن سهل المتوفى حوالى ٢٨٥ هـ[١] . ولا نعرف عن هـذا الـكتاب إلا ما نقله عنه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (مثلاً ج ١١ ص ١٩٠) . ولم يحفظ لنا الزمن وصفاً معاصراً كاملاً لثورة الزنج إلا ما أورده ابن جرير الطبرى فى تاريخه (ولد الطبرى ٢٢٤ هـ وتوفى ٣١٠ هـ) .

لهذا يعد تاريخ الطبرى من أقدم المصادر التى روت أخبار هذه الثورة ودور القرماطيين فيها . ولابد أن يكون الطبرى قد عاصر أحداث هذه الثورة وشهد بعضها على الأقل .

ومن بعـده أشار المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) إلى « القرماطى » من بين الشعوب السودانية التى أمعنت فى المغرب وذكر أن لهم ملكاً ودار مملكة[٢] .

وهناك كاتب عربى آخر ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وهو المقدس ، أورد فى كتابه « أحسن التقاسيم » (كتبه حوالى ٣٨٥ هـ / ٩٨٥م) تعريفاً سريعاً موجزاً بالقرماطيين ، فوصفهم بأنهم جنس من أجناس السودان الـكثيرة التى تتاخم أرضهم بلاد المغرب ومصر من قبل الجنوب ، وأنهم يتعاملون بالملح ، والنوبة والحبشة بالثياب[٣] .

وفيما عدا هـذه المصادر لا نكاد نجد من كتاب العرب من أضاف شيئاً جديداً إلى الإشارات القليلة التى وردت فيها . وهـذا أمر يسترعى انتباهنا ، ويدعونا إلى أن نتساءل عن حقيقة هـذا الاسم ، وكيف نعلل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن أخبار هذه الجماعة وتاريخها ؟

---

(١) مروج الذهب (نشر محيى الدين عبد الحميد) ٤/١٩٥ .

(٢) مروج الذهب (ط مصر نشر محيى الدين عبد الحميد) ج ٢ ص ٢٠ (القوماطى صوابها القرماطى) .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

أما التعرف على حقيقة هذه التسمية ، فالسبيل إليه أحد احتمالين : فإما أن يكون لفظ القرماطيين قد أطلق على هذه الجماعة بعد انتقالهم إلى العراق ، كأن يكون مشتقاً من لهجة أو مصطلح عراقى ، فهو فى هذه الحالة ليس مكتسباً من موطنهم الإفريقى الأول . وإما أن يكون هذا الإسم — من مادته الأصلية — علماً معروفاً على شعب قديم من شعوب السودان الغربى حملوه معهم من موطنهم الإفريقى .

وإذا كان من اليسير أن نرد بعض الأسماء التى أطلقت على زنوج البصرة إلى مصطلحات محلية نشأت فى العراق ، مثل قولهم : الفراتية ، وهم الزنوج الذين سكنوا منطقة فرات البصرة ، والشورجية ، وهم الزنوج الذين عملوا فى إزالة الشورج ، وهو الزبد الملحى الذى كانت تجلبه المياه إلى أرض العراق الأدنى ثم تنحسر عنها — فليس من اليسير أن نرد كلمة مثل « القرماطيين » إلى اصطلاح عراقى . ولا أظن أن الأستاذ ماسينيون قد أدرك وجه الصواب فيما أورده فى مقالتيه : الزنج والقرامطة[1] من ربط مصطنع بين لفظى القرامطة والقرماطيين . ويقول فى مقالته الثانية (والأكثر احتمالاً أن يكون لفظ القرامطة مأخوذاً من لهجة « واسط » الآرامية المحلية إذ ورد فيها لفظ (قرمطا) ومعناه المدلس . وقبل أن تقوم حركة القرامطة بسنوات ، أى منذ سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨ م ، ظهرت فى هذه المنطقة ذاتها ، فرقة تسمى « القرماطية » إلى جانب فرقة الفراتية ، وكانت من بين فرق الجند المحاربة فى ثورة الزنج .

فالواقع أن محاولة الربط بين هذين اللفظين هى خلط بين جماعتين وحركتين ، مبنى على مجرد التشابه اللفظى . وإذا جاز أن يكون لفظ القرامطة مشتقاً من لهجة محلية ، على اعتبار أن معظم أفرادهم كانوا من العرب والأنباط الذين رسخت

---

(١) الأولى فى دائرة المعارف الإسلام (مجلد ١٠ — الترجمة العربية) والثانية فى
Shorter Eneye of Islam (Karmitians)

أصولهم فى البيئة العراقية وما جاورها من عهود بعيدة ، فإنه من المستبعد أن يكون لفظ القرماطيين من نفس الاشتقاق ، ولاسيما إذا عرفنا أن حركة الزنج قداختلفت إلى حد كبير ، فى زمانها ووسائلها وطبيعتها عن حركة القرامطة ، وأن الوصف الذى أورده كل من المسعودى والمقدسى عن القرماطيين قد أكد أنهم جنس كسائر أجناس السودان ، ولم يشر أى منهما إلى صلتهم بالبيئة العراقية ، ولا بثورة الزنج فى العراق . وكلاً منهما — على اقتضابه — يدل على أنهم جنس معين فى إفريقية ، لهم طريقة فى التعامل (فى موطنهم الإفريقى طبعاً) تختلف عن طريقة النوبة والحبشة ولهم ملك ودار مملكة . فالأرجح أن يكون إسمهم مكتسباً من موطنهم الأصلى فى أفريقية ، وأن يكونوا قد حملوه إلى العراق ، كما حمل الزنج والنوبة إسميهما من أفريقية واحتفظوا بهما فى المهجر العراقى وغيره من المهاجر .

وهنا نقف عند السؤال الثانى : كيف نعلل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن التعريف الكافى بهذا الشعب وتاريخه فى موطنه الأفريقى، على الرغم مما نعرفه من حرص هؤلاء وأولئك على تدوين كل ما انتهى إليهم عن شعوب السودان وممالكهم وأخبارهم ؟

والواقع أن الشعوب التى عرفها العرب فى منطقة السودان الغربى وتحدثوا عنها حديثاً مفصلاً ، هى الشعوب التى برزت فى صورة ممالك أو سلطنات اسلامية واستمرت علاقاتها بالعالم الإسلامى زماناً غير قصير . ولا ريب فى أن أكثر شعوب السودان الغربى قد أبرزها النشاط الإسلامى والنشاط التجارى متضافرين فى تلك العصور ، فلمعت أسماؤها فى ميادين الحرب والسياسة والتجارة والدعوة إلى الإسلام ، وظفرت بنصيب غير قليل مما كتبه العرب .

ولم يكن القرماطيون — على ما يظهر — من جملة هذه الكثرة الغالبة من شعوب السودان الغربى التى لمعت أسماؤها ، ولم يتح لهم فى بلادهم — فى العصور

الإسلامية — ما أتيح لإخوانهم من فرص التفوق فى أى مجال من المجالات المشار إليها . ومن أجل هذا — فيما نرجح — أغفل المؤرخون العرب ذكرهم إلا فى القليل النادر .

وإذا أردنا أن نبحث عن مثال من تلك الشعوب القليلة التى ضعف شأنها بانتشار الإسلام فى المنطقة الواقعة جنوبى بلاد المغرب ، فإن لدينا حالة معينة ذكرها الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » ، وهى حالة أهل « ودان » إذ يقول(١) : « وأما أرض ودان فإنها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر ، وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة ، وكان الملك فى أهلها ناشئاً متوارثاً ، إلى أن جاء دين الإسلام ، فخافوا من المسلمين ، فتوغلوا هرباً فى بلاد الصحراء فتفرقوا ، ولم يبق بها الآن إلا مدينة « دواد »(٢) وهى الآن (أى فى القرن السادس الهجرى) خراب ليس بها إلا بقايا قوم من السودان معايشهم كدرة وأمورهم نكدة .

ولعل هذا النص يعبر عن جزء من حادث كان أوسع مجالاً مما ذكره الإدريسى . فلم تكن أرض ودان — فى حقيقة الأمر — إلا مركزاً واقعاً فى طريق تجارى طويل عامر بسكانه ، أهم مراكزه : فزان — جرمه — ودان. وكان هذا الطريق مزدهراً منذ عصور قديمة ، قبل الإسلام ، وظل كذلك ، إلى أن تفرق أهله بسبب الغزوات الإسلامية من جهة ، واشتداد العواصف الرملية وعجزهم عن مقاومتها من جهة أخرى ، مما حدا بالتجار إلى التحول عنه إلى طريق آخر هو : طريق سجلماسة — أودغشت — منحنى النيجر .

عاش على ذلك الطريق التجارى (طريق فزان . جرمه . ودان) ، منذ

---

(١) وصف أفريقيا الشمالية (قطعة من نزهة المشتاق للادريسى) تحقيق بيريس (ط الجزائر ١٩٥٧) ص ٢٣ .

(١) قرأها بالمر (The Bornu, Sahara & Sudan 1936,) (واو) وربما صمتها (ودان) .

عصور ما قبل الميلاد ، شعب سماهم اليونان الجرمانت Garamantes ، ازدهروا في زمان المؤرخ هيرودوت (حوالى ٥٠٠ ق م) وامتدت مساكنهم على طول ذلك الطريق . وفى جنوب فزان تقع منطقة جرمه Garama التى نسبوا إليها ، وهى مركزهم الأول ، وفيه استقرت جماعات منهم ، ونالت نصيباً من الحضارة ، وامتصت قدراً صالحاً من الثقافة المصرية أوالليبية القديمة ، واستخدمت مركبات الخيل . ومنهم من امتدت مساكنهم إلى داخل الواحات الواقعة غربى مصر . فإذا اتجهنا إلى المراكز الجنوبية من هذا الطريق ، وجدنا فريقاً من الجرمانتيين قد ضربوا خيامهم فى الصحارى الجنوبية ، بعيداً عن مركزهم الأول « جرمه » ، وبلغت مساكنهم واحة العوينات . ومنهم جماعات أقاموا فى المنطقة التى سميت فيما بعد « بلاد الكانم » ، وفى تيبستى(١) .

ويتضح من هذا كله أن الجرمانتيين كانوا قائمين على مراكز هذا الطريق ، وما تفرع منها إلى الشرق . وظلوا كذلك فى خلال عصور مابعد الميلاد ، إسماً لامعاً يجد عناية المؤرخين من اليونان والرومان ، ويملك قدراً كبيراً من السيطرة والنفوذ .

ثم هجر التجار هذا الطريق فى العصور الإسلامية الأولى للأسباب التى ذكرنا ، وتفرق أهله ، وتقطعت الوشائج بين جماعات الجرمانتيين ، والتمس بعضهم سبيل الهجرة إلى مناطق أخرى ، وصارت كل فئة وقد اختلطت بعناصر حامية وزنجية مختلفة على حسب مؤثرات البيئات التى عاشوا فيها أوانتقلوا إليها ، وعرفت فئات منهم باسم خاص غير الإسم القديم المشترك . فهؤلاء الذين عاشوا فى تيبستى وما حولها كانوا هم النواة التى كونت جماعة « التبو » . ولعل هذه الجماعة نفسها هى التى عرفت فى شمالى دارفور باسم الجروان أو القرعان . ولا تزال بقاياهم تؤلف جزءاً من سكان دارفور فى الوقت الحاضر .

---

(١) بالمرض ٤ ، ٨ ، ١٧ هامش .

أما الإسم القديم المشترك ، وهو الجرمانتيون ، فلا يطلق فى الوقت الحاضر على أية جماعة من هذه الشعوب التى تسكن إفريقية . فقد عفى عليه الزمن ، واندرج فى طى النسيان على مر العصور .

على أنه من المستغرب أن يختفى إسم الجرمانتيين دفعة واحدة حتى من المصادر العربية المبكرة ، ولا سيما إذا عرفنا أن العرب المسلمين لابد أنهم أدركوا فترة ما من قوة هذا الشعب ، قبل أن يصل إلى حضيض الوهن والضعف والتفرق . بل لقد عرف الفاتحون الأولون من العرب المسلمين ، مدينة « جرمة » مركز الجرمانتيين الأول ، فعندما قدم عقبة بن نافع « ودان » وافتتحها سأل أهلها هل من ورائكم أحد ؟ فقيل له : جرمه وهى مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثمانى ليالٍ من ودان ، فدعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا(١) .

وقد يزول هذا الأمر المستغرب ، إذا انتهينا إلى احتمال أن يكون بعض كتاب العرب الأوائل ، ممن نقل عنهم الطبرى والمقدسى والمسعودى قد عرفوا هذا الإسم القديم المشترك ، وذكروه فى كتبهم فى صيغة « القرماطيين » وما أشبه أن يكون تعريباً للفظ الجرمانتيين .

من المحتمل أن يكون الفاتحون من العرب الأوائل عرفوا هذه الجماعة بإسمها عندما غزوا جرمه وودان ، وربما حملوا معهم أسرى منهم إلى البلاد الإسلامية .

فإذا صح هذا أمكن القول بأن فئات من الجرمانت كانوا من جملة الجماعات التى انتقلت من أفريقية إلى العراق فى تجارة الرقيق أو غيرها ، فى عصور الإسلام المبكرة ، قبل أن يعفى الزمن على إسمهم القديم المشترك ثم ظهروا فى ثورة الزنج فى القرن الثالث الهجرى وكان لهم دور فى هذه الثورة .

---

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ — وأنظر (جرمة) فى معجم البلدان لياقوت .

أما القرماطيون (الجرمانت) فى موطنهم الأصلى ، فى أفريقيا ، فمن المحتمل أن سلطانهم قد استمر — كما قد يفهم من كلام المسعودى — إلى القرن الرابع الهجرى ، ولعله لم يستمر كثيراً بعد زمن المسعودى . لعله كان آخذاً فى الضعف والانحلال ، مع انقضاء القرن الرابع الهجرى .

وعندما أخذ مؤرخو القرون التالية ، « القرن الخامس ومايليه » ، يسجلون شعوب السودان الغربى وممالكهم ، لم يكن للجرمانت أو القرماطيين شأن ولا سلطان فى بلادهم فأغفلوا ذكرهم .

عبد المجيد عابدين